

الديموقراطية

على الطريقة الأمريكية!

اليوم الواحد من أجل تبادل المعلومات التي تفوق في تعقيدها الجملة الأخيرة. كيف نفسير مثل هذا المستوى العالي من الذكاء والإبداع اللذين يمتلكهما إنسان عاديّ امتلاكاً تاماً؟ «إنّ ثمة جواباً واحداً على هذا السؤال»، يقول تشومسكي، ويتابع: «أنّ مثل ذلك المستوى مبنيّ في صميم الدماغ، ونولّد معه. ولو جاء أحد سكّان المريخ الأذكاء إلى الأرض فسيكتشف ذلك، وسيرى أنّ اللغات الإنسانيّة جميعها متشابهة. إنّ البراعة هي في أن تجد القوانين الأساسيّة للغات جميعها - وهذا هدف هائل لكنّ المرء قادر على الوصول إليه!».

لقد أمضى تشومسكي أكثر حياته الأكاديمية باحثاً في الأمور التقنيّة (هل من راغب في معرفة نظرية التآلي المحدود؟)، جاهداً في العثور على تلك القوانين المسماة بالكليّات الثابتة. ويطرح نظرية مؤداه، بشكل تقريبي، أننا نولد وفي رأس كلّ منا علبة من الأزرار أو المفاتيح. وتقرّر الحضارة التي يولد فيها الطفل الكيفيّة التي تكون عليها تلك الأزرار. ففي أحد الأنساق تكون الأزرار هنغاريّة، وفي نسق آخر تكون أوردويّة.^(*) وفي الحضارات جميعها، تبدأ الأزرار بالقرقة حين يبلغ الطفل حوالي الثانية من عمره، ويشرع الطفل بتأليف جمل جديدة، تماماً مثلما يبدأ في سنّ الحادية عشرة بإنتاج خصائص جنسيّة ثانويّة. إنّ وصفاً لعلبة الأزرار تلك سوف يُخبرنا الكثير عن كيفيّة عمل الدماغ - وهي كيفيّة قد كانت أمراً غامضاً إلى حدّ بعيد قبل مجيء تشومسكي.

إنّ واحداً من الأمور التي تنتج عن عمل تشومسكي هذا - وهو عمل لم يُبرهن بعد - هو أنّ لغة الإنسان وأكثر تصرفاته كذلك

عندما ذهب «مايكل ألبرت» إلى بولندا عام ١٩٨٠ اكتشف أنّ البولنديين كانوا يظنون أنّ ثمة تشومسكيين اثنين. وقال ألبرت: «تشومسكي في اللسانيّات هو بمثابة سيغموند فرويد في علم النفس التحليلي». وألبرت هو محرّر تشومسكي في مجلة Z وصديق له منذ الستينات حين كان ألبرت آنذاك طالباً في الفيزياء ومنظماً لحركات احتجاج معادية للحرب في جامعة M.I.T. في ولاية ماساتشوستس. وأضاف ألبرت: «إنّ جميع فروع اللسانيّات الحديثة تنبع من عمل تشومسكي. فضلاً عن أنّ تحليله السياسي قد ألهم حركة السلام ما يزيد على ربع قرن. ولذلك فإنّه لم يكن في مقدور البولنديين أن يظنوا أنّ بإمكان فردٍ واحدٍ فحسب أن يقوم بكلّ هذه الأعمال!»

إنّ القيام بمهنتين على نحو متواصل قد اقتضى التضحية من دون شكّ. ففي حلقة من حلقات البرنامج الأمريكي Saturday Night Live كان واحد من الممثلين يحمل نسخة من دليل تشومسكي أثناء قيامه بمسرحيّة هزليّة قصيرة. فاتصل ألبرت بـ «تشومسكي» ليقول له: «اسمع! إنّك على شاشة التلفزيون!»، لكنّه اكتشف أنّ عليه أن يشرح لتشومسكي ما هو برنامج Saturday Night Live. إذن، تشومسكي لا يعرف شيئاً عن الثقافة الشعبيّة. إنّهُ لا يشاهد التلفزيون ولا يستمع إلى موسيقى الروك أند رول، وقد يذهب إلى السينما مرّة واحدة في السنة، وليس له إلّا وقت قصير يكرسه لحياته الخاصّة.

غير أنّ ما يعرفه «نعوم تشومسكي» حقّ المعرفة هو كيفيّة خلق الدماغ الإنساني للغة. تخيّل، للحظة، أنّك تقرأ الآن وتفهم جملة لم تقرأها أو تفهمها من قبل. وتخيّل أنّك تفعل هذا مئات المرّات في

* نسبة إلى الأوردو، لغة الباكستان الأدبيّة.

«ملائمة ولكنها غير مُسبَّبة». وهذا الاستنتاج يحتوي على مفهوم هرطقي في الشق السلوكي من علم النفس. وبكلمات أخرى، فإننا نُؤلِّد بطاقة هائلة على الإبداع يستحيل التنبؤ بها؛ نولد بـ «غريزة الحرية». إن هذا المفهوم يضع تشومسكي على تحوم علم النفس والفلسفة واللسانيات، وينسجم مع تراث حركة التنوير إبان القرن الثامن عشر - تراث روسو والدكارتيين والحريين المتطرفين^(١).

وإذ يؤمن تشومسكي بأن الطريقة الفضلى لتحقيق حريتنا القصوى التي نمتلكها بالوراثة إنما تتم بالفوضوية التي يطلق عليها اسم «الاشتراكية الحُروية»، فإنه قد شنَّ هجوماً لا هوادة فيه على الهرمية الأمريكية وعلى الدولة القطرية (Nation - State) بشكل عام. وهذا ما جعله نبياً مهاناً في أرضه. فالحال أن قلة ضئيلة من الأمريكيين العاديين يعرفون تشومسكي، رغم كونه واحداً من أكثر المثقفين المؤثرين الذين يحظون بالاحترام على امتداد العالم أجمع باستثناء الولايات المتحدة الأمريكية. ولقلاً روجع كتاب من كتبه في وسائل الإعلام الكبرى أو المجلات الأكاديمية القياسية. ولا تظهر مقالاته إلا في مجلات يسارية صغيرة كمجلة Z. وتتجاهله محطات التلفزيون الأمريكية وتؤثر عليه الأقزام الذين ترضى عنهم شركة «الجنرال الكتريك» فيظهرون على برامج الأحد الصباحية. ولو ذُكر تشومسكي على الإطلاق، فإنه يُدمغ عادة بلقب «اليهودي الذي يكره نفسه»، وذلك بفضل نقده الكاسح للكيفية التي تُعامل بها إسرائيل الشعب الفلسطيني. وقد وضع تشومسكي جريدة النيويورك تايمز في وضع يعرضها للعطب الدائم. فكيف نفسّر أن واحداً من أذكى الناس في الأرض يعتقد أن هذه الجريدة (التي تحوز أكبر معدل من المبيعات في أمريكا) ركامٌ عابثٌ بالأكاذيب المتعلقة بجرائم الولايات المتحدة في الحروب؟ بل الأدهى أن تشومسكي يبرهن ذلك على نحو منتظم، وبحواشٍ مستفيضة. ولما كان تفسير مثل ذلك السؤال منعداً، فإن الجريدة تتجاهل تشومسكي. . . هكذا وبساطة.

وُلد نعوم تشومسكي في فيلادلفيا في السابع من كانون الأول عام ١٩٢٨. وكان أبوه ويليام، الأكاديمي العبراني، قد هاجر من قرية صغيرة في أوكرانيا تفادياً للخدمة العسكرية. وكانت أمّه «إلسي» أكاديمية عبرانية هي الأخرى، وتكتب كتباً للأطفال. وفي جميع الاعتبار، فإن نعوم الطفل قد نضح قبل الأوان، وكانت لوالديه بصيرةٌ فذةٌ مكنتهما من إلحاقه بمدرسة تقدمية تجريبية. وفي العاشرة

(١) هم القائلون بحرية الإرادة وعدم خضوعها لقانون الضرورة

في العاشرة من عمره كتب افتتاحيات تدافع عن الفوضويين في الحرب الأهلية الإسبانية، وهو اليوم يكتب كتباً في فترة زمنية يعجز أكثرنا عن قراءة ما كتبه فيها!

من عمره بدأ نعوم يكتب افتتاحيات تدافع عن الفوضويين في الحرب الأهلية الإسبانية! ولطالما استقلّ القطار، إبان سنوات مراهقته، إلى نيويورك حيث أمضى بعض الوقت في كُشكٍ للصحف يمتلكه عمّه - وهو كُشك كان يجتمع فيه بعض اليهود الراديكاليين من أبناء الطبقة العاملة فيبحثون في أمور السياسة والأدب. وحصل على شهادة الدكتوراه في اللسانيات من جامعة M.I.T. وتورّ حقله عدّة مرّات. ومع حلول بداية الستينات كان تشومسكي قد صمّم لنفسه حياة هانئة: بيتاً في الضاحية، وعائلة فتية أحبها، وعملاً علمياً مرضياً. ثمّ التفت إلى حرب فيتنام، وجهر برفضه لها رغم أن هذا كان أمراً غير آمن آنذاك. ورفض دفع ضرائبه - وهو عمل احتجاجي استمرّ في القيام به حتى منتصف السبعينات - وساعد على تشكيل هيئة Resist («قاوم») التي حثت الشبان الأمريكيين على عدم تأدية الخدمة العسكرية. وحين خضع الدكتور «بنجامين سبوك» للمحاكمة بسبب قيامه بعمل مماثل، كان تشومسكي شريكاً (غير مُتهم قانونياً) في المؤامرة.

وفي عام ١٩٦٧ تقاسم الزنزانة مع «نورمان مايلر» عقب تظاهرة جرت أمام البيتاغون. ويذكر «مايلر» في جيوش الظلام أن تشومسكي كان يُعتبر في الـ M.I.T. «إنساناً عبقرياً رغم كونه لم يتجاوز إذّاك الثلاثين من عمره». وقد وصفه «مايلر» آنذاك بأنه «رجلٌ نحيل، حادّ الملامح، ينم عن التقشّف، وذو سبب تدلّ على الاستقامة الأخلاقية الدمثة، لكنّ المطلقة». ولا يزال مثل هذا الوصف مناسباً حتى اليوم.

ومع كون تشومسكي في الثالثة والستين، فإنه لا يزال يلتزم ببرنامج عمل قاس. ففي النهار يقوم بالتدريس والأبحاث. وفي عدّة أمسيات في الأسبوع، في الطوابق السفلى من الكنائس على امتداد الولايات المتحدة، يحاضر عن شرور السياسة الخارجية التي تنتهجها بلاده. وفي ثقافة اليسار الحقيقي المعزولة - وهي ثقافة لا تشكّل في حدّ ذاتها سوى جزء فحسب من الثقافة الأمريكية -، فإن

تستطيع أن تقول إن نظاماً ما هو نظام ديمقراطي بقدر ما يمتلك المواطنون سبلاً حقيقية للمشاركة في قرارات تتعلق بالأمور العامة. وفي هذه الحال فإن «الديموقراطية» ليست أمراً يُجاب عليه بـ «نعم» أو «لا»؛ بل إن ثمة أبعاداً كثيرة مختلفة في المجتمعات المختلفة. وأمّا بالمعنى الايديولوجي لـ «الديموقراطية» - فالمعنى الأوروبي^(١) هو المعنى الذي تُستعمل به الكلمة استعمالاً فعلياً - فإن مجتمعاً ما لا يكون ديمقراطياً إلا حين تقوده فئات من رجال أعمال يخضعون لفئات من رجال أعمال آخرين يقودون الولايات المتحدة.

فمثلاً، كانت «غواتيمالا» في بداية الخمسينات «ديموقراطية» رأسالية بالمعنى القاموسي للكلمة. والواقع أنها كانت من أكثر الأنظمة ديمقراطية في العالم الثالث قاطبة. فقد كانت تحظى بدعم شعبي كبير، وهذا أمر لا شك فيه. يكفي أن تقرأ تحليل وكالة المخابرات المركزية CIA؛ فقد كان من الأمور التي تقلق الأمريكيين أن الحكومة الغواتيمالية ذات دعم شعبي هائل. غير أن غواتيمالا كانت تنتهج سياسات لا ترضى عنها الولايات المتحدة: مثل سياسة القومية المستقلة، والتنمية المحلية، والإصلاح الزراعي، وغير ذلك. لقد كانت مثل تلك السياسات تؤدي الأشخاص الذين عدتهم الولايات المتحدة حلفاءها الطبيعيين: أي رجال الأعمال المرتبطين بالشركات الأمريكية، والعسكريين الذين يأخذون أوامرهم من الولايات المتحدة. فكان على الولايات المتحدة أن تسقط الحكومة في غواتيمالا عام ١٩٥٤ لكي تحمي ما نُسَميه - نحن الأمريكيين - بـ «الديموقراطية».

أو خُذ مثلاً أحدث: نيكاراغوا في الثمانينات. لقد حدثت انتخابات هناك عام ١٩٨٤. غير أن تلك الانتخابات لم تكن وفق ايديولوجيا الولايات المتحدة؛ فحسب الجرائد والمجلات الأمريكية، لم تحدث أي انتخابات آنذاك، بل إن الانتخابات لم تحدث إلا في عام ١٩٩٠. وأمّا الحقيقة التاريخية فتبين أن انتخابات حرة قد جرت بالفعل عام ١٩٨٤، وربما لم توازها أي انتخابات أخرى في التاريخ من حيث خضوعها للمراقبة الدقيقة. فقد أجرت جمعية الدراسات الأمريكية اللاتينية - وهي الجمعية المحترفة التي تضم الأكاديميين الأمريكيين اللاتينيين - أول تحليل مفصل تقوم به لأي انتخابات أمريكية لاتينية. وأرسلت الحكومة الدانمركية، وهي حكومة شديدة الرجعية وموالية للأمريكان، وفداً إلى نيكاراغوا؛ وكذلك الأمر بالنسبة للبرلمان الإيرلندي. وتدقق المراقبون. وكان الاستنتاج العام الذي

(١) نسبة إلى جورج أورويل (١٩٠٣ - ١٩٥٠) الذي كان يكره التوت لبتارية. أشهر أعماله مزرعة الحيوان (١٩٤٥) و١٩٨٤ (١٩٤٩)

محاضرة لتشومسكي سوف تكهرب من ليسوا سوى هياكل عظمية، وترك فضلة فيهم من الطاقة المعنوية لشهور تالية!

إنه ليكتب كتباً في فترة زمنية يعجز أكثرنا عن قراءة ما كتبه فيها! ولعل أفضل كتاب للقارئ المبتدئ أن يكون دليل تشومسكي (The Chomsky Reader) وهو مجموعة من المقالات القارصة، والمرحة في كثير من الأحيان. أما كتابه الأخير عَوَق الديمقراطية^(٢)، فهو نزغ أحشاء مذهل لسياسة الولايات المتحدة حيال العالم الثالث...

والغريب في الأمر أن تشومسكي لا يعتبر نفسه كاتباً، ويصرّ على أنه «لا يزاول أي حرفة». ويقول إنه لم يقرأ مقالته «مسؤولية المثقفين» ذاتها، وهي مقالة نشرتها The New York Review of Books عام ١٩٦٧، ولم تعد هذه الجريدة تلمس تشومسكي اليوم! والمقالة هذه كان قد دونها واحد من تلامذته أثناء حديث اعتيادي؛ ومع ذلك فإنها ترسم تعريفاً لحركة السلام كأفضل ما تعرّف به الوثيقة الرسمية. وقد دفعت هذه المقالة باسم تشومسكي إلى مصاف «ثورو» و«إيمرسون»^(٣) في نطاق أدب التمرد. ما هي مسؤولية المثقفين؟ يجيب تشومسكي: «أن يقولوا الصدق وأن يفصحوا الأكاذيب».

* لنبدأ بكتابك الأخير عَوَق الديمقراطية. ماذا تعني بـ «الديموقراطية»، وماذا يعني حكامنا بـ «الديموقراطية»، ولماذا يعوقون ما تعنيه أنت بـ «الديموقراطية»؟

لـ «الديموقراطية»، شأنها شأن معظم مصطلحات الخطاب السياسي، معنيان مختلفان. هناك المعنى القاموسي، وهناك المعنى الذي يُستخدم لأهداف تتعلق بالسيطرة والمنفعة. حسب القاموس

(١) صدر تعريباً له العام الماضي عن مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت) ومؤسسة عيبال (دمشق). والجدير ذكره أن تشومسكي أصدر بعد هذه المقابلة كتاباً آخر هو العام الأول بعد الخمسة: الغزو مستمر.

(٢) هنري دافيد ثورو (١٨١٧ - ١٨٦٢) مؤلف أمريكي وصديق لايمرسون. وقد اعتبر كتابه الحياة في الغابات (١٨٥٤) من التحف الأدبية، ويصف تجربته خلال سنتين في الغابات. واشتهر كذلك بمقالته «العصيان المدني» (١٨٤٩) التي يُدافع فيها عن حق الفرد في رفض دفع الضرائب حين يبلي عليه الضمير ذلك، ويشرح تقنية المقاومة السلبية التي تبناها غاندي لاحقاً.

أمّا «رالف والدو إيمرسون» (١٨٠٣ - ١٨٨٢) فشاعر وفيلسوف أمريكي كان ذا أثر بين في الحياة الأمريكية من خلال تقديسه للطبيعة وللصوفية. وقد حُثّ عام ١٨٣٧ في خطاب قرأه لثلاثياد جامعة هارفرد على استقلال أمريكا الثقافي.

طلع به حتى أكثر الموفدين رجعية هو أن الانتخابات قد كانت حقيقية.

* أذكر أنني قرأت في مجلة Z من يقول إن نيكارغوا كانت تمتلك قدراً من الديمقراطية يفوق ذلك الذي تشهده الولايات المتحدة في أكثر انتخاباتها الرئاسية.

- إن ما تقوله، بالمعنى القاموسي، أمر قابل للنقاش. فبالمعنى الاصطلاحي الرسمي - المتعلق بما إذا كانت آلات الانتخاب تعمل، وغير ذلك من الأمور - لا يمكن مقارنتها بالانتخابات الأمريكية. إن نيكارغوا بلد ينتمي إلى العالم الثالث. غير أنه من الشائع في العالم الثالث أن تكون ثمة خيارات انتخابية أكثر من تلك الموجودة في الولايات المتحدة. وذلك لأننا في أمريكا نمتلك ديمقراطية بالمعنى الأوروبي: إن الدولة لا تتدخل وتوقف المرشحين، غير أن الخيار ضيق؛ وهذا ما نسميه «ديمقراطية فعالة»!

وأياً يكن الأمر، فإن انتخابات ١٩٨٤ لم تجر لأنها لم تتلاءم مع الشرط الذي وضعته الولايات المتحدة، وهو أن تقرر نتائجها سلفاً. بل إن الولايات المتحدة حاولت أن تعطل الانتخابات مستخدمة جميع الوسائل الممكنة. ف«الكونترا» التي لم تكن إلا قوة إرهابية تسيّرها الولايات المتحدة، جهدت لتعطيل الانتخابات ونجحت في ذلك. لقد هاجم عناصر «الكونترا» مراكز الاقتراع، وقاموا بغير ذلك من الأمور التخريبية. وكان ثمة مرشح ينطق باسم الإدارة الأمريكية، هو صاحب بنك قضى أكثر حياته في الولايات المتحدة، وقد اعتبرته الصحافة الأمريكية مرشحاً شعبياً. غير أنه لم يكن هناك أي دليل على مثل هذا الزعم. وعندما اتضح أنه لن ينجح في الانتخابات، حُت على الانسحاب. وتبين لاحقاً أنه كان يتقاضى مرتباً ثابتاً من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (CIA). ثم ترى الصحافة الأمريكية تدعي «أنه لم تجر أي انتخابات وأن المرشح الأساسي قد انسحب!». لقد رُميت الانتخابات بالتزوير، وذلك لكي يُبرر الهجوم على نيكارغوا. لم يزعجنا «سوموزا»، لكن الانتخابات هي التي أزعجتنا!

حين حصلت الانتخابات التالية عام ١٩٩٠، كانت البلاد قد دُفعت آنذاك إلى البؤس الشامل. فقد تم تدميرها تدميراً حقيقياً بفضل اعتداءات «الكونترا» والحرب الاقتصادية التي ربما كانت أشد فتكاً. وعندما أعلنت نيكارغوا عن الانتخابات، أذاع البيت الأبيض بوضوح أن انتخاب مرشح أمريكي سوف يعني نهاية للخنق الاقتصادي.

في هذه الأثناء استمرت الولايات المتحدة في الحفاظ على «الكونترا»، خارقةً بذلك اتفاق رؤساء أمريكا الوسطى القاضي بحل القوات الإرهابية الممولة من قبل الأمريكان. وأطلق على ذلك الحفاظ «المساعدة الإنسانية»، مع أن المحكمة الدولية كانت قد حكمت بأنها مساعدة عسكرية واضحة. لكن هذا القرار كان قرار المحكمة الدولية فحسب! وهنا أيضاً يحضر السؤال الأوروبي المتعلق بما هو قانوني وما هو غير قانوني. وكان ردنا [أي رد الإدارة الأمريكية] واضحاً: سوف تستمر «الكونترا» في اعتداءاتها الإرهابية ما دام الشعب لم يصوت كما يجلولنا. وفي ظل الاعتداءات الإرهابية والخنق الاقتصادي جرت انتخابات، فتم التصويت على ما يجلو لجورج بوش، وسُمي ذلك التصويت «انتخاباً». لقد كان البيت الأبيض واضحاً: إذا صوتتم كما يجلولنا، عشتم. أما إذا صوتتم عكس إرادتنا فإن اثيوبيا [حيث المجاعة] سوف تبدو أفضل حالاً منكم! وهكذا سُميت هذه الانتخابات بالحرّة. وأما تلك التي لم تستطع الولايات المتحدة أن تتحكم فيها، فإنها لم تكن كذلك! وبالمناسبة، فقد كان هناك شيء يشبه الإجماع على مثل هذه التفرقة في الصحافة الأمريكية.

* الجميع، من «مايكل كينسلي» إلى «باتريك بيوكاين»، يساراً وعميماً.

- حتى «أنطوني لويس». الجميع كانوا منتشين بالنتيجة التي آلت إليها هذه الانتخابات «الديموقراطية». وكانت جريدة النيويورك تايمز مضحكة بشكل خاص؛ فقد كتبت في أحد عناوينها العريضة «الأمريكيون متحدون في الفرح» - وهو عنوان عريض مُجدّه في بلد غريب عجيب توتاليتاري مثل ألبانيا. وقال عنوان عريض آخر. «الولايات المتحدة انتصرت. لعبة عادلة»، وهذا يعني انتخبوا على طريقتنا، أو موتوا.

إذن عليك أن تختار. أي لغة سوف تتكلم: الإنكليزية، أو لغة «أورويل»؟ بل إن أورويل نفسه لم يحز خيلاً واسعاً يتيح له التفكير بمثل هذه الأمور.

* الحق أن رواية ١٩٨٤ لأورويل تحكي عن الولايات المتحدة وإنكلترا كما تحكي عن روسيا الستالينية سواء بسواء.

- قد يكون هذا ما عناه بالفعل. غير أن السبب الأوحيد الذي صار من أجله محبوباً هو أن المرء في استطاعته أن يؤول كلاً من ١٩٨٤ ومزرعة الحيوان بأنها يحكيان عن الاتحاد السوفياتي وحده. وهذا ما جعل أورويل مقبولاً.

- هذا صحيح . إنَّ موقفهم ثابت بالفعل . وهذا مماثل تماماً لما تجده في البرافدا أيام ستالين . غير أنَّ باستطاعة المرء أن يفهم لماذا يتوجَّب على سوفياتي آنذاك أن يكون مأجوراً للحزب أو يخرس؛ فقد كان الكلام شديد الخطورة . حاول أن تكون إنساناً شريفاً، فإنَّك سوف تنتهي في الغولاج (مراكز التعذيب) . لكنَّ حاول أن تكون إنساناً شريفاً في الولايات المتحدة، فإنَّ ما سوف يحدث لك لن يكون أمراً ذا بال .

* هنا، في أمريكا، يُفقدونك إن كنتَ شريفاً!

- وباستطاعتهم أن يشوِّهوا سمعتك . ثمة غرامة ينبغي على الشريف أن يدفعها . غير أنَّ مثل هذه الغرامة لا يمكن مقارنتها بالتعذيب أو القتل . هنا، في أمريكا، الوضع أسهل بكثير . وهذا يعني أنَّ الناس، ولا سيَّما أولئك المحظيَّون، الذين لا يكونون شرفاء هم ذوو مستوى أخلاقي /معنوي أخفض بكثير من أسوأ الكوميسيرين إبان حكم ستالين!

* كيف تفسِّر أن القتل والتعذيب أقلُّ هنا؟ إنَّك لو نظرت إلى أمريكا الوسطى لوجدت أن قادتنا قادرون على ذئبك الأمريين بشكل واضح . إنَّ تأويلي لأحداث الستينات - كتلك التي جرت في ولاية «كنت»، واغتيال «فرد هامبتون» التابع لمنظمة «الفهود السود»، وتلفيق تهم بحق «جيري ونيمو پرات» - يقول إنها كانت تهدف إلى تخذير الناس بأنَّ عصابات القتل قادرة على العمل ههنا، في أمريكا، أيضاً .

- عليك أن تفهم طبيعة المجتمع الأمريكي . لقد حصلت اغتالات بحق «الفهود السود»، وأسوأ الحالات التي أعرفها اغتيال «فرد هامبتون» . إنَّ اختياره بالذات هو أمرٌ لافت للنظر . لقد كانت «الفهود السود»، شأنها شأن كثير من المنظَّمات التي انبثقت من «الغيتوهات»^(١)، منظمة مختلطة: احتوت لصوصاً عاديين، كما احتوت منظِّمين جدِّين اعتبروا خطراً حقيقياً . وكان «فرد هامبتون» منظِّماً فعَّالاً في «غيتو» شيكاغو؛ وكان واحداً من الأهداف الأساسيَّة لإرهاب الـ FBI (رجال البوليس الفدرالي)، الذين اغتالوه بالتعاون مع «دائرة بوليس شيكاغو» بعد خطة أعدَّها الـ FBI . ولكنَّك سوف تلاحظ أن أحداً لم يهتمَّ بذلك .

فمثلاً، لم ينحدِّث أحد عن هذا الأمر في التحقيقات المتعلقة بفضيحة «ووترغيت» . لم يقل أحد [للرئيس] ريتشارد نيكسون:

(١) أحياء الأقليات، سوداً أو يهوداً أو غير ذلك .

* هل تشعر بالغيثان حين تسمع منظراً أيديولوجياً يمينياً متطرفاً مثل نورمان بودهورتز يصنِّف نفسه ضمن التراث الأوروبي من حيث وقوفه في وجه القوَّة واختراقه حجب الدعاية الزائفة .

بعضُ «المثقفين» لا تجتاحهم العاطفة الإنسانية إلاَّ حين يتعلَّق الأمر بجرائم الآخرين!

- إذا أخذنا الجزء الأوروبي الذي يتحدَّث عنه بودهورتز، فإنَّه ليس كليَّ البعد عن الحقيقة . إنَّ بودهورتز مهتمٌّ بالكتابات الأوروبية التي تدين العدوَّ الرسمي . غير أنَّ في استطاعة المرء أن يقول كذلك إنَّ بودهورتز ينتمي إلى تراث كلِّ كوميسير شيوعي^(١) . إنَّ أيَّ كوميسير شيوعي يدين جرائم الولايات المتحدة بلا شكَّ . والحق أنَّ باستطاعتك أن تقرأ البرافدا فتهمر الدموع على خديك حزناً على المعاملة الرهيبة التي يلاقها السود في الجنوب الأمريكي، على الجرائم الأمريكيَّة في الهند الصينيَّة . إنَّ الكوميسيرين لا تملكهم العاطفة إلاَّ حين يتعلَّق الأمر بجرائم الولايات المتحدة . ومثلهم في ذلك نورمان بودهورتز الذي لا تجتاحه العاطفة إلاَّ حين يتعلَّق الأمر بجرائم الآخرين .

غير أنَّ الناس الشرفاء، في الاتحاد السوفياتي أو هنا، سوف يكثرثون للجرائم التي ترتكبها الدولة التي ينتمون إليها - تلك الدولة التي يتحمَّلون جزءاً من المسؤوليَّة عن قيامها . وإننا نقدر هذا حين نتحدَّث عن الروس؛ ولا نكرِّم مأجوري الحزب الشيوعي الروسي حين يدينون الجرائم الأمريكيَّة . إلاَّ أننا نطبِّق هذا المنطق عينه ههنا في أمريكا . فمثل هذا التطبيق غير معقول، لأنَّه عقلائي وشريف، وحين تكون عقلائياً وشريفاً فإنَّك تُستبعد في العادة من الدوائر المتعلِّمة، من الطبقات المحظيَّة . إنَّ هذا هو أمر خطير جداً .

* حين تقرأ كتاب الأعمدة المحافظين يتضح لك أن موقفهم ثابت في نسبة كلِّ ما هو خير إلى القوَّة (السلطة)، ونسبة كلِّ ما هو شرٌّ إلى الفقير أو إلى كبش محرقةٍ آخر .

(١) الكوميسير أو المفوض الشيوعي : مسؤول في الحزب الشيوعي يُعهد إليه بيت المبادئ الحزبيَّة في وحدة من الوحدات العسكريَّة والتأكد من صدق ولاء أفرادها للحزب .

«لحظة واحدة من فضلك، لقد دبرت اغتيالاً على طريقة الغستابو»
لواحد من منظمي الغيتو». إنَّ جُلَّ ما قالوه في تحقيقات «وترغيت»
هو التالي: «لقد شتمت رجلاً قوياً. إنَّ الدستور يتهاوى!»

وهكذا تمَّ اغتيال «فرد هامبتون». إلا أنَّ الناس البيض ذوي
الخطوة لم يتعرَّضوا للاغتيال، بمن فيهم أولئك الذين كانوا يجهرون
بمعارضتهم جهراً شديداً. وهذا ما يعكس طبيعة المجتمع
الأمريكي: إنه ليس مجتمعاً توتاليتارياً (شمولياً)، بل إنه مجتمع حرٌّ
جداً يتهيأ لدخول الطور الأخير من الرأسمالية؛ إنه ليس مجتمعاً
رأسمالياً صافياً، بالطبع، فمثل هذا المجتمع لا يستطيع البقاء
أسوعاً واحداً.

* هل تعتقد أنَّ اليسار إذا ما حزم أمره في التسعينات فإنَّنا سوف
نجد نشاطات حكومية شبيهة بتلك التي تحدَّثنا عنها للتو؟

- لا أعتقد ذلك.

* لن نجد شيئاً شبيهاً بـ «كوينتلپرو»؟

الحرية في الولايات المتحدة سلعة تحصل على أكبر قدرٍ منها بقدرٍ ما تدفع!

- كانت «كوينتلپرو» تمييزية. فحين تُوجَّه نحو السود تكون قتلاً؛
وحين تُوجَّه نحو البيض تصير تعطيلاً لأعمالهم، وتشهيراً بهم،
وتلفيقاً لأخبار تتعلق بتصرفاتهم الجنسية، وأشياء من هذا القبيل.
ثمَّة فرق كبير بين المعاملتين، يتوقَّف على ما إذا كان المرء ذا وضعٍ
مميَّز أو لا. وفي مجتمعنا الأمريكي، يكون الناس ذوو السلطة والثروة
أحراراً نسبياً. فالحرية سلعة، شأنها شأن كلِّ شيءٍ آخر في مجتمع
رأسمالي: تحصل على أكبر قدرٍ منها بقدرٍ ما تدفع! وإن كنت غنياً
ولون جلدك هو اللون «الصحيح» فإنَّك تستطيع أن تشتري الكثير.
إنَّ الناس ذوي الامتيازات الذين يديرون هذه البلاد في واقع الحال
لا يريدون للدولة أن تكون قويةً لئلا تلاحق أمثالهم. ولذلك فإنَّهم
سوف يجمون الحقوق المدنية لمن يكرههم شرط أن يكون هؤلاء من
الطبقة «الصحيحة».

* هل سبق أن تساءلت عن نفسية هؤلاء الكوميسيرين

(1) البوليس السري النازي.

الأميركان؟ لقد كتبت عن عملية «التصفية» (Filtering) التي يترقى
بموجبها المطيع وينتهي العاصي في مكانٍ آخر. غير أنَّي أتساءل عنَّا
يجول في أذهانهم؟

- لا أعتقد أنَّه من الصعب جداً أن نتصوّر الجواب. إنَّ جميع
الناس الذين التقيت بهم - بمن فيهم أنا بالذات - قد قاموا بأشياء
سيئة في حياتهم، أشياء يعلمون أنَّه كان ينبغي عليهم ألا يقوموا
بها. ثمَّة أناس قليلون يقولون «حقاً لقد قمنا بعمل رديء». إنَّ ما
يفعله الناس في العادة هو أن يلقفوا طريقةً تشرح لماذا كان ما قاموا
به هو الصحيح. هذه هي - بشكلٍ أساسي - الطريقة التي تعمل بها
التشكّلات المعتدّية: تكون لديك مصلحة ما، شيءٌ ترغب به،
وعلى أساس تلك المصلحة أو هذا الشيء المرغوب تبني نظاماً
معتقدياً يجعل من نظرتك هذه أمراً صائباً وعادلاً. ومن ثمَّ تؤمن
بهذا النظام المعتددي. إنَّ هذا عيب إنساني شائع.

هناك أناس يمارسون تلك النظرة بطريقة تفوق الآخرين. وإنَّ
أشطر من يمارسها يصيرون كوميسيرين. فالحال أن «أفضل» مخطَّط
هو أن يكون ثمَّة كتاب مقالات يؤمنون بما يقولون؛ ذلك أنَّ
السَّاحرين الكليبيين يميلون إلى إغفال بعض المفاتيح (Clues) لأنَّهم
يجاولون على الدوام أن يحتالوا على كذبهم. إذن فإنَّ أولئك القادرين
على تصديق كلِّ ما يدعّم السلطة والامتيازات - شرط أن يتمَّ ذلك
التصديق على نحوٍ استقلالي في رأيهم - هم «الأفضل» [من وجهة
نظر السلطة طبعاً].

إنَّ القاعدة هي أنَّك إذا أخضعت ذاتك لمصالح الأقوياء - سواء
أكان هؤلاء آباء أم أساتذة أم أيَّ أناسٍ آخرين - وإذا فعلت ذلك
طوعاً وبطريقة مهذّبة، فسوف ترتقي. لنفترض أنَّك تلميذ في
مدرسة، وأنَّ الأستاذ يقول شيئاً عن التاريخ الأمريكي يكون من
السخف بحيث أنَّك تشعر بالضحك. وأتذكّر هذه الحكمة
منذ الطفولة؛ فلو نهضت وقلت: «إنَّ هذا أمر تافه حقاً» فإنَّ أحداً
لن يصدِّقك، لأنَّ الحقائق مقلوبة وسوف تقع في المتاعب.

* هل تذكر ما حدث لك؟

- لقد حصل هذا مراراً كثيرة. طُردت من الصفوف. حسناً، لم
أطرد كثيراً... فثمَّة أناس واجهوا الأساتذة بشكل ثابت فوصموا
بأنَّهم يعانون من مشكلات سلوكية. فما إن تطرح أسئلة أكثر ممَّا
ينبغي، وتساءل عن الأسباب بدل أن تكتفي بتنفيذ الأوامر، حتَّى
يصنّفوك في خانة معيّنة: كالقول إنَّك «مفرط النشاط»
(Hyperactive)، أو عديم النظام، أو مفرط الإحساس. ويجري

هذا طول حياتك التعليميّة والمهنيّة. فالصحفي الذي يشرع بانتقاء الأمور التي لا يتوجّب عليه انتقاؤها يُستدعى من طرف رئيس التحرير الذي يقول له: «إنك تضيّع موضوعيتك. إنك قد ورطت أحاسيسك أكثر مما ينبغي في القصص التي تكتبها. لماذا لا تعمل في محكمة البوليس إلى أن تفهم المسألة فهماً صحيحاً؟».

إنّ هذا يحدث في الطفولة حقّاً. وإذا قبلت الأمر بهدوء وسابرت به بغضّ النظر عن مشاعرك، فإنّ ما تقوله سوف يصبح مبدأ هادياً لك في نهاية المطاف، لأنّه من الصعب جداً أن تؤمن بأمر وتقول أمراً آخر. وأستطيع أن أرى ذلك بوضوح في خلفيتي الأكاديميّة ذاتها: اذهب إلى أيّ جامعة نخبويّة فستجد أنّك تتحدّث في العادة إلى أناس شديدي الانضباط، أناس قد اختبروا لشدة طاعتهم. وهذا أمر مفهوم؛ لأنك لو قاومت إغراء أن تقول لأستاذك: «أنت إنسانٌ أحمق» - وهذا ما قد ينطبق عليه حقّاً - ولو امتنعت عن قول «هذه حماقة» حين يُعيّن لك واجبٌ دراسي أخرق، فإنك سوف تتجاوز تدريجياً «المصافي» المطلوبة. وهكذا تصبح في جامعة جيّدة وتحصل في نهاية الأمر على وظيفة جيّدة.

* بالنسبة لي فإنّ السؤال هو التالي: لماذا يكون ثمة تلميذ أكثر مقاومةً للكذب من أجل الارتقاء؟ علينا أن نقرّ بأنّ هناك شيئاً اسمه الشجاعة الأخلاقيّة. بعض الناس يمتلكونها وبعضهم لا يمتلكونها.

- هناك اختلافات بين الأفراد لا نستطيع فهمها، تماماً مثلما لا نستطيع فهم السبب الذي من أجله يجب بعض الناس الرياضيات بينما يجب آخرون موسيقى «الروك اند رول». إنّه لمن حسن حظّ الجنس البشري أنّ الناس مختلفون. فلو كنّا متشابهين، لما كانت الحياة جديرة بالعيش. ولعلّ كثيراً من الاختلافات أن تكون مقرّرة بالوراثة سلفاً. ومرّد بعض الاختلافات الأخرى إلى تأثير التدريب المبكر على ملكاتنا الوراثيّة. هناك الكثير من الأسباب، ولا أحد يعرف شيئاً عنها، ولذلك فإنّ بمقدورك أن تتنبأ بها أو تحدس بأيّ أمر تشاؤه.

على أنّ هناك أموراً سوف نتعرّف إليها إن كُنّا صادقين. منها القدرة على تشكيل معتقدات نخدم المرء الذي يعتنقها، والإيمان - من ثمّ - بها. وإذا كانت تلك القدرة وذلك الإيمان من الخصائص الأساسيّة لبنيتك الثقافيّة، فإنّه من المحتمل أن تذهب بعيداً في ذلك الأمر.

خذ مثلاً ما كُتب عن مذكّرات «جيمس ريستون» في عدد النيويورك تايمز بوك ريفيو الصادر في ٢٠ تشرين الأوّل ١٩٩١.

يقول الكاتب إنّ «ريستون قد كان رجلاً يُعجب به الجميع، وأنّه كانت له وجهة نظر مستقلّة، وأنّه كره حرب فيتنام»، وهلمّ جرّاً. وأمّا واقع الحال فهو أنّ «جيمس ريستون» قد ارتقى في مهنته بفضل تناوله طعام الغداء مع «دين آشيون» وبفضل كتابته مقالة في اليوم التالي عمّا طلب منه «دين آشيون» أن يكتبه. وما فعله ريستون سُمّي بـ «السبّ الصحفي من الداخل». ما أعمق هذه التسمية! وأمّا القول بأنّه كره حرب فيتنام، فالواقع أنّه أحبّها؛ لقد كتب مقالات تتحدّث عن دفاع الأمريكيّين عن مبادئ تقول بعدم جواز خضوع شعب لآخر، وبأنّ الخالق قد أضفى علينا قدران نحمل تلك المبادئ! نفايات مثيرة لأقصى أنواع الخجل! غير أن ذلك لا يهمّ. فإنا متأكد أنّ الكاتب الذي امتدح ريستون يؤمن بكلّ ما كتبه عنه. ولولم يؤمن بهذا لما كان مُراجع كتاب ريستون.

* الكاتب هو «فرد بارنس» من *The New Republic*.

- لا أعرفه. لربّما اعتقد أنّه يحكي الحقيقة. وقد لا يكون اعتقد مثل هذا. وقد يكون هازلاً.

* ألم يسبق لك أن شاهدته على التلفزيون أيام الأحاد؟

- لا، لا اعتقد أنّي قادر على تحمّل ذلك. ومن دون أن أعرفه أشبهه بأنّه يؤمن بما يقوله. ما أريد أن أقوله هو التالي: إنّ الأشخاص الوحيديين الذين ينجحون في الوصول إلى التعبير عن ذواتهم في ذلك المحيط «الجليل» هم الذين سبق لهم أن برهنوا عن خضوعهم للسلطة.

لكن يجب أن أخبرك أنّ ثمة صحفيّين يعون ذلك وعياً جيّداً ويسعون إلى العمل في إطار نظام القوّة والسلطة الذي يفهمونه فهماً جيّداً. أنت تعرف مثل هؤلاء الأشخاص، وأنا كذلك. وإنّي أعتقد أنّ البحث فيما يمكن عمله من داخل المؤسسات لهو عملٌ جديرٌ بالاحترام، رغم بنية تلك المؤسسات الهرميّة والسلطويّة.

* أثناء الانتخابات، دائماً تقرأ أولئك الصحفيّين الفاجعين يكتبون عن الأهميّة القصوى للتصويت على المرشّحين المقترعين. غير أنّ أحداً منهم لا يسأل - لو سلّمنا أنّ التصويت لصالح «ستور» ك فكرة عظيمة إلى هذا الحدّ - لماذا لا يكون التصويت لربّ عمك فكرةً أعظم!

- لا، مثل هذا السؤال مستبعد لديهم. فجزء هامّ من الايديولوجيا السائدة يقول بالسماح للمرء بنقد الكونغرس والرئيس والسياسيين المحليّين، وبالقول بأنهم لصوص جميعاً؛ لكنّه ليس

مسموحٌ لك أن تنتقد الكونغرس والرئيس،
لكنه ليس مسموحاً لك أن تقول إن نظام
الشركات هو في صميم ذلك كله.

مسموحاً لك أن تقول إن نظام الشركات هو في صميم ذلك كله.
بل إنه ليس مسموحاً لك أن ترى ذلك. لا، إن فكرة عدم التصويت
لربّ عملك مستبعدة.

غير أنك لو آمنت حقاً بعقيدة الحريّين إبّان القرن الثامن عشر،
عقيدة «الآباء المؤسسين»، فإن ذلك السؤال هو بالضبط ما سوف
تسأله. إن أولئك «الآباء» لم يكونوا ضدّ دولة قويّة فحسب، بل
كانوا كذلك معادين للمواضع التي تتركز فيها القوّة. ولقد حدث في
أيامهم الغابرة أن المواضع المريّية لتمرکزات القوّة تلك قد كانت
الدولة والنظام الإقطاعي والكنيسة، ولهذا كانت هذه جميعها هي ما
وقفوا ضده.

غير أنه مع حلول القرن التاسع عشر بدأت تظهر مواضع جديدة
لتمرکزات القوّة، مواضع لم يكن الآباء المؤسسون قد أولوها اهتماماً
عظيماً، وهي تحديداً قوّة الشركات. لقد كانت هذه ذات قدرة على
التأثير والسيطرة على حياتنا تفوق القدرة التي استطاع «الآباء
المؤسسون» أن يتنبأوا بها. على أن مبادئهم لا مندوحة من أن
تدفعك لطرح السؤال التالي ذاته: لماذا ينبغي علينا أن نخضع لربّ
العمل؟ ولماذا يتوجّب على قرارات الاستئثار أن تكون في يد أفراد؟
ولماذا يجب على القوّة الخاصّة (الفردية) أن تقرّر ما يمكن إنتاجه وما
يمكن استهلاكه بالإضافة إلى شروط العمل؟ ولماذا ينبغي على المرء
أن ينفذ الأوامر؟ ولماذا لا يتوجّب على الجميع أن يشاركوا ديموقراطياً
وأن يقرّروا ما يجب فعله؟

* كلّمنا تحدّثت النيويورك تايمز أو أيّ جريدة أخرى عن دمار
طبقة الأوزون^(١) فإنّها يعرضان الحدث كما لو أنّه مأساة لا يمكن
تفاديها: كما لو أنّه زلزال أو إعصار. غير أن التأثير الكيماوي
لكربونات الكلوروفلور في الأوزون قد أثبت منذ عام ١٩٧٣. وأمّا
«دوبونت» وحكّامنا السياسيّون فقد كانوا حجر عثرة دون التصديق

على منع ذلك الدمار، وها نحن اليوم في وضع ينذر بموت مئات
الآلاف من الناس من جرّاء سرطان الجلد أو بإصابتهم بالسُدس^(٢). لو
أنّ تلك الكيماويات قد صُنعت في أوروبا الشرقية لكنّا لنا الشيوعيّة
من دون شك! لكن أن تكون الرأسمالية هي من فعل ذلك...

- إنّها قد فعلت ذلك في سياق عملها الطبيعي، لا بسبب أيّ
فسادٍ ما. لقد فعلت ذلك لأنّ ما يدفع النظام إلى العمل وما يُفترض
أن يدفعه إلى العمل إنّما هو الفائدة التي ستجنّي في الغد. إن من
يفكّر بالأثار البعيدة المدى لهو خارج النظام، وهذا جزء من
طبيعة النظام ذاتها. وهذا يُفترض أن يكون أمراً جيّداً! في الأدبيات
الاقتصاديّة يُطلق على سرطان الرئة الذي سوف يأتي في المستقبل
لقب «المظهر الخارجي» (externality)؛ ولا يظهر في نظام السوق.
وحين تبيع الكيماويات فإنّه يتوقّع منك أن تزيد فائدة حاملي الأسهم
إلى أقصى حدّ، وإن لم تفعل ذلك فإنّ ما تقوم به عملٌ لأخلاقِيّ.
إنك لن تزيد الفائدة إلى أقصى حدّ حين يتتابك القلق بشأن إصابة
الناس بالسرطان بعد عشرين سنة. ولو قلقت مثل ذلك القلق فإنك
لن تكون رئيس الهيئة زمناً طويلاً؛ هكذا يعمل النظام، بل إنه
يسترعي الإعجاب بسبب هذه الخاصيّة! اسأل «ميلتون
فريدمان»^(٣). لو أنّ شركة «دوبونت» بدأت تقلق بشأن طبقة
الأوزون وحوّلت مواردها إلى حيث تستطيع مجابهة الأخطار، لكانت
شركة أخرى قد طردت «دوبونت» من سوق العمل. تلك هي
طبيعة النظام!

إنّ ما أقوله ليس عسيراً على الفهم. إنّ ولدًا في الثانية عشرة من
عمره يفهم ذلك. لكنّ الأفضل للقيّمين ألا يفهموه! تماماً مثلما
الأفضل لهم أن يفهموا أنّ ثمة سؤالاً عن عدم لزوم التصويت لربّ
العمل. لماذا يكون ثمة ربّ عمل أصلاً؟ لماذا لا تكون صناعة
القرار عملاً جماعياً؟ لم يبرهن أحد أنّ هذا أمرٌ غير قابل للتنفيذ.
خذ أيّ مؤسسة علميّة ناجحة - ال MIT مثلاً - فالناس هنا
يعملون معاً بالفعل! لقد درّستُ صفّاً البارحة، وكنت واقفاً في
الأمام وكان الطلاب جالسين دوني، غير أنّهم كانوا يخبرونني أموراً
وكنت أخبرهم أموراً بدوري. ثمّ أتوا إليّ بعد ذلك وقالوا لي إنّي
مخطئ، فحاولنا أن نضع تصوّراً للمسألة. هذه هي الطريقة
الوحيدة للتقدّم. وأمّا لو كان عندنا في الصف نظام أخبرهم بموجبه

(١) إعتام عدسة العين.

(٢) منظر اقتصادي في جامعة شيكاغو.

(١) شكل من أشكال الأوكسجين النقيّ.

ما ينبغي عليهم أن يفكروا به، نظام لا يسمح لهم بالقول أين أخطأت، فإن ما سنطلع به محض هراء.

* ما هو الفرق العملي بين الفوضوي والماركسي؟ وما رأيك بالحكمة في إنشاء حزب طليعي؟

- أنا معارض لمثل هذا الحزب معارضة تامة. أولاً، تنتمي الماركسية في رأيي إلى تاريخ الدين المنظم. والواقع، كما تثبت التجربة، أن أي مفهوم يحمل اسم إنسان ما ينتمي إلى عالم الدين لا الخطاب العقلي. ليس ثمة علماء فيزياء يسمون أنفسهم آينشتاينين. كذلك سوف يكون من الجنون أن يسمي البعض أنفسهم «تشومسكيين». في العالم الحقيقي هناك أفراد وجدوا في المكان الصحيح في الزمن الصحيح، أو أنهم حازوا «موجة» عقلية راجحة أو شيئاً من هذا القبيل، وقاموا بعمل هام. لكنني لم أسمع بأي إنسان لم يخطئ أو لم يقيم آخرون بتطوير عمله بسرعة. وهذا يعني أنك حين تعرف نفسك بـ «الماركسي» أو «الفرويدي» أو أي شيء آخر، فإنك تتعبد أمام ضريح قديس.

لم يؤمن قط بأن الاشتراكية ممكنة في روسيا. إن قوانين التاريخ الحديدية قد طرحت بأن الاشتراكية سوف تحدث في المجتمعات الصناعية المتقدمة. والواقع أن «لينين» و«تروتسكي» تحركا بسرعة لسحق الميول الاشتراكية في الثورة الروسية وتدميرها - عنيت: مجالس المصانع وتنظيمات العمال الفوضويين.

كانت فكرة لينين تقول بأن أماننا مجموعتين من المثقفين الثوريين، الأذكاء، وأنهم سوف يدفعون المجتمع إلى مستقبل أفضل يعجز السلافيون عن فهمه لغبايهم! هذه هي فكرته الأساسية، وهي ليست مختلفة على الإطلاق عن ايدولوجية الديمقراطية الرأسمالية؛ بل إن في مقدورك أن تستبدل الواحدة بالأخرى. إذا كانت هذه هي الماركسية، فإنه ينبغي علينا أن نعاديها معادة صارمة. وفي رأيي أن الاشتراكية قد تعرضت لضربة هائلة في روسيا عام 1917، ينبغي عليها أن تفيق منها.

* كتبت، ذات مرة، تقول إن الزعم بأن ما جرى في الاتحاد السوفيتي هو اشتراكية قد كان في مصلحة كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي معاً.

- طبعاً، في مصلحتها تماماً! فقد كانت الولايات المتحدة تهدف بشكل واضح إلى تشويه سمعة البدائل عن الاستبدادية الرأسمالية. وأما الاتحاد السوفياتي فقد كان يهدف إلى إضفاء الفتنة الأخلاقية على الاشتراكية، وهي فتنة هائلة. وهكذا فقد كان من مصلحة نظامي القوة أن ينشرا تلك الكذبة الغربية القائلة بأن الثورة البلشفية ثورة اشتراكية. والحق أن الاشتراكية إن عنت أي شيء فإتما تعني سيطرة العامل على وسائل الإنتاج وصناعة القرار؛ وهذا هو أقل شيء.

* هل فكرت يوماً في الاستسلام؟ لقد استنتج كثير من أصدقائي بأن الناس ليسوا إلا قطيعاً من الخرفان. وأنا أقول لو كان هذا صحيحاً، لكان من الأفضل أن نلتحق بصوف الحزب الجمهوري فنسرق ما شئنا من المال ونعيش بحرية!

- لا نعلم حقاً ما إذا كان من الممكن أن يعمل شيء أم لا. فخارج نطاق العلوم لا يعلم أحد الكثير عن أي أمر، ولا سيما حين يتعلق هذا الأمر بالإنسان؛ فإننا إذاً لا نعلم شيئاً تقريباً إلا ما يحسه المرء بحده أو ما تقوله له تجربته. غير أنك لو نظرت إلى التاريخ فإنك سوف تجد تحسناً أكيداً في السنوات العشرين أو الثلاثين الماضية: أنا أعتقد أن هذه البلاد (أمريكا) قد شهدت ثورة ثقافية، وأن الأشخاص الموجودين في مراكز السلطة يكادون أن

ماركس لم يتحدث أكثر من خمس جمل عمياً سوف يكون عليه مجتمع ما بعد الرأسمالية، واللينينية أكثر أجنحة الماركسية رجعية، وإن كلاً من لينين وتروتسكي سحقا الميول الاشتراكية في الثورة الروسية!

لو كان حقل التحليل الاجتماعي والتاريخي والاقتصادي أمراً نافهاً لدرجة أن ما كتبه شخص ما منذ مئة سنة لا يزال موثوقاً، لكان ينبغي علينا أن نتحدث عن موضوع آخر. غير أنني أفهم «ماركس» كالتالي: إنه بنى نظرية مهمة إلى حد ما، تتعلق بنموذج مجرد لرأسمالية القرن التاسع عشر. لقد قام ماركس بعمل صحفي جيد، وكان يمتلك أفكاراً هامة بصدد التاريخ. غير أنه لم تكن لديه في مجموع أعماله، على الأرجح، أكثر من خمس جمل عمياً سوف يكون عليه مجتمع ما بعد الرأسمالية! وأما القول بأن له تراثاً في السياسة الفعلية وفي التنظيم، فهذا لا ينطبق على ماركس وإنما على لينين؛ واللينينية قد تكون أكثر أجنحة الماركسية رجعية! لقد كان لينين ماركسياً أورثودوكسياً (متزماً) إلى حد بعيد، وحسب قراءتي له فإنه

يموتوا خوفاً من تلك الثورة.

لا يقول هذا بالطبع. فالحال أن الدوائر الأكثر تعالماً هنا رجعية مثلها كانت على الدوام. وإنَّ الجدل الذي يحدث الآن انعكاسٌ لتطوُّر ملحوظ في المناخ الثقافي.

* هل هذا التطوُّر من تراث السِّينيات؟

- لقد خلّفت السِّينيات تراثاً هائلاً. هل تظنُّ أننا كنا سنسمع كلمة احتجاج واحدة على «الذكرى الخمسمئة» لولا ما حدث في السِّينيات؟ أو تظنُّ أن شخصاً واحداً كان سيقف إلى جانب «آنيتا هيل» ليقول: «إنَّ ما حدث لك هو شكل من أشكال الإزعاج الجنسي»؟. وهذه الأسباب فإنَّ الجميع يكره مرحلة السِّينيات لأنها قد كان من الممكن أن تؤدي إلى ديموقراطية حقيقية. في السبعينات كانت ثمة عبارة هي «أزمة الديموقراطية»، وهي أزمة منشؤها أن الناس لم يعودوا سلبيين وغير مباليين، بل إنهم قد شرعوا في تنظيم صفوفهم وحاولوا أن يصنعوا شيئاً. وبالنسبة، فقد كان «الليبراليون» - الأشخاص المتحلِّقون حول «جيمي كارتر»، اللجنتة الثلاثية - هم الذين كتبوا كتاب أزمة الديموقراطية.

إنَّ الخاصية التي يجب فهمها عن السِّينيات هي أن الأبطال قد كانوا أناساً لم يسمع عنهم أحد: «فرسان الحرية»، «عمال SNCC»، الأشخاص الذين كانت رؤوسهم تُضرب بعنف أسبوعاً بعد أسبوع لقيامهم بأعمال سياسية تنظيمية. لم يكن ثمة وهم حول قيادة العمل السياسي المعادي لحرب فيتنام آنذاك: فقد كانت القيادة من نصيب كلِّ من حضر إلى التظاهرات والاجتماعات. إنَّه لن يُسمح لنا أن نفهم هذا الآن، بل إننا نُجبر على الاعتقاد بأنَّ الحركات الشعبية ليست إلا أعمالاً نابعة من قيادة فردية و«كاريزما» فردية. (١) إنَّ السبب في إجبارنا على مثل هذا الفهم مرده إلى أنه يسلب الناس قواهم ويجعلهم يظنون بأنهم عاجزون عن القيام بأيِّ فعل تكون فيه مصلحتهم هم.

* أود أن أسألك عن مهاجم آخر من مهاجميك. حين أجرى «بيل مويرز» مقابلة مع «توم وولف» على شاشة PBS، اتهمك «وولف» بأنك تؤيد نظرية ما في الرأسالية. وفي عوق الديموقراطية تشير باستخفاف إلى نعته حقبة رونالد ريغان بأنها «واحدة من اللحظات الذهيبية العظيمة في الإنسانية قاطبة».

- إنَّ ما قاله صحيح لمن يمتلك دخلاً مثله! وأما في رأيي، فإنَّ حقبة ريغان قد كانت مسؤولة - وإن لم تكن مسؤولة وحدها - عن

هذا ما يفسر الهزة الكثير من «الصراف السياسي المستقيم». (١) فهذا إنك ترى أشخاصاً قد قادوا النظام الإيديولوجي بيد من حديد، فيأتي شخص آخر من دائرة في الأدب في جامعة ما ليقول شيئاً غير تقليدي، فينتابهم الجنون! لقد قرأت حوالي مئتي مقالة عن هذه «الأورثوذكسية الجديدة» التي تجتاح الجامعات، محطمة العصر الذهبي لحرية التعبير المطلقة. غير أني لم أقرأ مقالة واحدة تدافع عن تلك «الأورثوذكسية». فلو كانت هذه الأورثوذكسية قد سيطرت على كلِّ شيء كما يزعمون، فكيف نفسر أن الجميع يهاجمونها! إنَّ مثل هذا التساؤل لن يجول في عقلية كوميسر بسيطة.

كولومبوس مرتبطٌ بأسوأ عملي إبادة جماعية في التاريخ الإنساني: إفناء عشرات الملايين من الأمريكيين الأصليين، واسترقاق الإفريقيين.

إنَّ ما يُحكى عن «الذكرى الخمسمئة» هو أمرٌ جدير بالاهتمام في هذا المجال. يُحكى الكثير عن «اليساريين الفاشيين» الذين يقذفون بكريستوفر كولومبوس في النفايات وينكرون جميع الأعمال الرائعة التي أتت بها. إنَّ ما يقولونه هو أننا قد عشنا خمسمئة عام ونحن ننكر أسوأ عملي إبادة جماعية في التاريخ الإنساني، ولعلَّ الأول منها أن يكون أسوأ عمل إبادة على الإطلاق: إفناء الأمريكيين الأصليين الذين قُذروا بعشرات الملايين، وتدمير أعداد ضخمة من الإفريقيين عبر تجارة الرقيق. والعمالان قد ابتدأ من خلال كريستوفر كولومبوس! إننا لانني نحتفل بالإبادة الجماعية خمسمئة عام، غير أن المشكلة ليست هنا [في رأي اليمين]، وإنما في حقيقة أن اليسار يحاول التصحيح.

إنَّ أيَّ إنسان عاقل ينبغي أن يقول: «الحمد لله، إنَّ اليساريين الفاشيين يسيطرون الآن ويحاولون أن يصوّبوا الأمور». غير أن أحداً

(١) Political correctness تعبير ينم عن راديكالية المثقفين في أمريكا، ويسخر منها اليمين هناك.

(١) «الكاريزما»: جاذبية القائد التي تدفع الجماهير إلى تقديسه.

يستطيع أن يرى هذا الأمر لأنه كوميسير ومأجور حزبي. وهو ليس وحده في ذلك؛ لا أحد يرى هذا الأمر. إن حقيقة أن الولايات المتحدة هاجمت فيتنام الجنوبية ليست جزءاً من السوعي؛ رغم كونها حقيقة!

نحتاج بلداً، ونصّب فيه حكومة دمية لا تحظى بأيّ دعم شعبيّ، ونرسل زمراً لقتل القادة السياسيين المعارضين، ثمّ نسّمّي زمراًنا «فرقاً معادية للإرهاب»!

كارثة الرأسمالية التي كسحت العالم الثالث في الثمانينات. إن حقبته هي ما يسمّى بـ «العقد الضائع» في العالم الثالث: عشرات الملايين من الناس يعانون ويموتون. فيين عامي ١٩٨٠ و١٩٨٨ فقط، كان الإرهاب في جنوبي أفريقيا، المدعوم من الولايات المتحدة، مسؤولاً عن مقتل حوالي مليون ونصف مليون إنسان. ولو حسب عدد الأطفال الذين قضوا من سوء التغذية حين هبطت معدلات الدخل، فإنك ستحصل على رقم مخيف. بل إن ما جرى في الولايات المتحدة نفسها سيئ في حدّ ذاته، مع استثناء وضع الطبقات المسورة. فإذا جمعت كلّ الأرقام اتضح لك أن حقبته ريغان قد كانت حقبته شديدة السوء. أعجب إنسان يعتبرها واحدة من لحظات التاريخ الذهبية! إننا نعلم ما سوف نظنّ بمن يعتبر ما حدث في ألمانيا عام ١٩٣٩ لحظة ذهبية من لحظات التاريخ!

* هل قرأت كتاب المثقفون لـ «بول جونسون»؟

- إنه كتاب مضحك. لقد خلص إلى أن معارضي للحرب ضد فيتنام مستقاة من سياق مجلّي! إنه يقول هذا بالحرف الواحد. إن من يقول شيئاً كهذا لا بدّ أن يكون مجنوناً حقاً.

* هل أجبّت على المقطع التالي من كتابه: «طوال الستينات، ازداد هياج المثقفين في الغرب ضدّ السياسة الأمريكية في فيتنام، وضدّ مستوى العنف المتزايد الذي نفّذت بمقتضاه تلك السياسة. وهنا مفارقة ما. فكيف يحدث أن يمقت المثقفون استخدام حكومة غربية ديمقراطية للقوة من أجل إنقاذ ثلاث مناطق من الاحتلال على يد نظام توتاليتاري، حين يكون أولئك المثقفون بالذات قد ازدادوا قبولاً باستخدام العنف من أجل تحقيق المساواة العرقية، أو إنجاز التحرر الوطني، على يد مجموعات إرهابية تحلم بالحكومة السعيدة الخيرة؟»

- ممّن كنّا ننقذ فيتنام؟ نحن من هاجم فيتنام الجنوبية؛ لم يكن هناك روس، ولا صينيون، بل لم يكن هناك فيتناميون شاليون في البدء. نحن من هاجم فيتنام الجنوبية، هل نسّمّي هذا إنقاذاً؟ نحن من أدخل كمبوديا في الحرب حين هاجمناها. نحن من هاجم «لاؤس». ولننسى للحظة أن فيتنام الشمالية هي فيتنام، ولننسى كذلك أن الحكومة التي يزعم [جونسون] أننا كنّا ندافع عنها (أي سايفون) ادّعت أن فيتنام بلد غير قابل للتجزئة؛ وهذا هو البند الأول في الدستور الذي كتبه لهم الولايات المتحدة! لننسى كلّ هذا، ولنتظاهر بأنّ فيتنام الشمالية قد كانت أرهب مجتمعات في التاريخ. غير أننا كنّا نهاجم فيتنام الجنوبية. بول جونسون لا

أذكر أنه نُشر منذ أسابيع في النيويورك تايمز بوك ريفيو مراجعة لكتاب عن أحد الفيتناميين المتعاونين، كتبها «زالن غرانت». وكانت المقالة تمجد ذلك المتعاون. لقد تعاون مع الفرنسيين، ثمّ مع الأمريكان. وحسب الكتاب فإنّ هذا المتعاون قد صمّم عام ١٩٦١ أو ١٩٦٢ وسيلة استخدمها النظام التابع لإرسال «زمر موت» لاغتيال المنظمين السياسيين في «الفيتكونغ». وسُمّيت تلك الزمر بـ «الفرق المضادة للإرهاب». أعجب بمستوى الضلال هنا!! إننا نحتاج بلداً، ونصّب فيه حكومة دمية يُقرّ الجميع بأنها لا تحظى بأيّ دعم شعبيّ، ونرسل زمراً لقتل المنظمين السياسيين في بلدهم، ثمّ نسّمّي زمراًنا «فرقاً معادية للإرهاب»! هذا ما كتبت في النيويورك تايمز، ولم تطرف عين أحد. هذا يعكس حضارتنا الثقافية كثيراً. وانطلاقاً من هذه الخلفية يكتب «بول جونسون» مثل هذا الهراء المطلق، متشبهاً بنظرائه في روسيا الستالينية وألمانيا النازية. ولا شكّ أن «نورمان بودهورتر» سوف يعجب بكلماته!

* هل تقترح في الانتخابات؟

- أميل إلى التصويت في المستويات المنخفضة: على مستوى المسؤولين المحليين وممثلي الدولة. وقد أصوت أحياناً لرئيس جمهورية. وصوتت ضدّ «رونالد ريغان».

* هل رشّحت «والتر مونديل»؟

- كان من الممكن للحزب الديمقراطي أن يسمّي «شارلي ماكارثي» مرشحاً له، وكنت سأصوت له في مواجهة ريغان وجورج بوش، لأنّ هذين الرجلين خطران: ليسا خطرين في حدّ ذاتهما في الحقيقة؛ لم

يكن ريغان «رئيساً للجمهورية» حين احتفظ المراسلون بسرّ قذر طوال أعوام ثمانية. لقد دهش الديمقراطيون أثناء تحقيقات «إيران-كونترا» حين اكتشفوا أنّ الرئيس قد كذب وأنّ أحداً لم يكترب. ذلك أنّ الجمهور عاقل. فما الفرق في أن يُخبر ذلك المهرج المثير للشفقة بالسياسة الأمريكية أو أن يتذكرها بنفسه؟ لم يكن يفترض به أن يعلم ما يجري، كان من المفترض أن يأتي إلى الاجتماعات بين وقت وآخر ليقراً بضعة سطور! لربما أخبروه بما حدث، ولربما لم يخبروه، فليس ثمة ما هو أقل أهمية من التحقق.

إنّ المهم أنّ الناس حول ريغان قد كانوا شديدي الخطورة، يسمّون أنفسهم «محافظين»، لكن هذا هراء. إنهم دُولَانِيون^(١) جذريون، يؤمنون بدولة شديدة القوة والعنف.

* هل عندك ما تفيدنا به بصدد الانتخابات الحالية؟^(٢)

- إنها شبيهة بواحدة من أسوأ الانتخابات في العالم الثالث. خُذ «هندوراس». ثمة رجلان غنيان يطرحان برنامجاً واحداً، وتتكوّن حملة الانتخابات من شتائم ونكت وسيركات وليس من يزعم أنّ الشعب يشارك في الانتخابات.

* إنّ ما يعجبني في «كليتوت» [المرشّح الديمقراطي] هو أنّه تحبّ الخدمة العسكرية [إبّان حرب فيتنام] وأنهم الآن يستخدمون ذلك لإيقافه.

- إنّ تحبّبه الخدمة العسكرية كان الأمر العاقل الوحيد الذي فعله طوال حياته، لكنّ «كليتوت» اليوم ليس على استعداد للدفاع عنه...!

* هل ستترع لانتخاب رئيس جمهورية في تشرين الثاني (نوفمبر)؟

- إنّ ثمة مسألة قد تدفعني إلى الاقتراع، وهي إمكانية أن تشهد الأعوام الأربعة القادمة، مرةً أخرى، قضاة يمينيين متطرفين يكرهون الحقوق المدنية... إنّ أربع سنوات أخرى من مثل هذا القضاء سوف تؤسّس لنظام قانوني فاشي-وأنا لا أمزح-تندعم فيه الحقوق المدنية. وأمّا أن تكون هناك مسائل أخرى تدفعني إلى الاقتراع، فلست أرى أيّاً منها.

* ذات ليلة شاهدت على شاشة التلفزيون إعلاناً عن مخفّف الصدمات. وكان الشعار «إنّ المسألة لا تتعلّق بسيارتك وحدها، بل بحرّيتك كذلك!»؛ وتذكّرتك، وتذكّرت نظرتك القائلة بأنّ للناس

(١) Statists : المنادون بتركيز السلطة في يد الدولة.

(*) أُجريت المقابلة قبل فوز كليتون.

«غريزة للحرّية». إنّ جادة ماديسون^(١) وسياسيينا سوف يؤمنون بالشيء عينه؛ فهم كلّما أرادوا أن يبيعوك مخفّف صدمات أو بيرة أو حرباً، يحاولون أن يربطوا هذه الأشياء بالحرّية!

الرُّعبُ سينتاب أكثر الأمريكيين لو علموا ما تقترفه أيديهم في العالم؛ ولهذا السبب تمّ تشييد مثل هذا الصرح الهائل من الأكاذيب!

- بالتأكيد. إنهم يعلمون أنّ هذا هو ما يريدُه الناس. ورغم أنّ هذا لا يمكن إثباته - شأنه شأن أيّ أمر يتعلّق بالطبيعة الإنسانيّة - ، إلا أنّ تجربتي وحدي يثبتان صحّة هذا الاستنتاج. الناس يريدون أن يكونوا أحراراً، مستقلّين، غير مقموعين، ولا يريدون أن يسرقوا غيرهم من الناس. أنا أعتقد أنّ الرعب سوف ينتاب أكثر الأمريكيين لو علموا ما تقترفه أيديهم في العالم. وأعتقد أنّ ذلك هو السبب لمثل هذا الصرح الهائل من الأكاذيب.

إنّ ثمة سؤالاً واضحاً يطرح نفسه: لماذا لا يخبر قادتنا الحقيقة للناس؟ فمثلاً حين يريد قادتنا أن يدمّروا العراق، لماذا لا يقولون علناً: «اسمعوا! نريد أن نسيطر على نظام النفط العالمي. نريد أن ننشئ مبدأ يقول بأنّ العالم لا تحكمه إلاّ القوّة، لكون القوّة هي الشيء الوحيد الذي نجده! نريد أن نمنع أيّ قومية مستقلة من البروز. لا اعتراض لنا على صدّام حسين. إنه صديقنا. لقد عبّ الناس وقتلهم بالغازات السامة. وكان ما فعله مقبولاً، غير أنّه ما لبث أن عصى أوامرنا! ولذلك، فإنّه ينبغي تحطيمه عبرة للآخرين: أن لا تعصوا الأوامر».

لماذا لا يقول قادتنا ذلك؟ إنّ في مثل هذه الأقوال فضيلة الصدق. وإنّ قول الصدق لأسهل بكثير من تليفق الأكاذيب الخارقة، وأقلّ إجهاداً للنفس. لماذا لا يقولون الصدق؟

الجواب: لأنهم يعرفون أنّ الناس هم في أساسهم خيرون. والحقّ أنّ ذلك هو السبب الوحيد لجميع تليفقات القادة. إنّ هؤلاء يؤمنون أنّ الشعب خير وأنّ ثمة أملاً في أن تبدّل الأحوال. وهم - في رأيي - على حقّ. والواقع أنّك كلّما سمعت مزيداً من التحريف والكذب والخداع، اتّضح لك أنّ للناس غريزة للحرّية!

(١) جادة ماديسون مشهورة في نيويورك بمحلّاتها الفخمة الباهظة الثمن.